الفصل لأول

أحوال العالم الاسلامى فى بدايات القرن السادس عشر والفتوحات العثمانية للعالم العربى

فى بدايات القرن السادس عشر الميلادى تزعم العالم الإسلامى ثلاث قوى متميزة وهى : دولة المماليك فى مصر والشام والحجاز واليمن ، والدولة الصفوية فى فارس ، والدولة العثمانية فى الأناضول والبلقان والتى أستطاعت أن تمد سيطرتها إلى المجر .

ولما كانت كل قوة من هذه القوى تخشى على نفسها من تعاظم القوتين الأخريين فقد عمل كل طرف من هذه الاطراف على ايجاد عملية توازن مع الطرفين الآخرين حتى لا يشكل أحدهما خطرا عليه وعلى الرغم من ذلك فإن الصدام بين هذه القوى كان متوقعآ ، وكان الحذر المشوب بالقلق ينتاب كلا منهم تجاه الآخر .وانتهى الأمر بتحول الجهاد الاسلامى ضد أعداء الاسلام إلى حروب فيما بين المسلمين أنفسهم ، وفيما يلى نعرض لهذه الأطراف الثلاثة ، والصراع الذى حدث بينهم وانتهى بانتصار العثمانيين .

أولآ :الصفويون :-

ينتسب الصفويون إلى الشيخ صفى الدين أسحق الأردبيلى [1] (٦٠٥- ٧٣٥هـ) (١٢٥٢-١٣٣٤م) وقد بدأ نفوذهم يبرز فى ايران خلال القرن التاسع الهجرى وكانوا يقولون بامتداد نسبهم إلى الحسين بن على بن أبى طالب [2] من جهة، وإلى يزدجرد الساسانى من جهة أخرى، وقد أسس أحدهم وهو إسماعيل الصفوى دولتهم فى اذربيجان عام ٩٦٠هـ/ ١٥٠٠م ثم بسط نفوذه فى شروان والعراق والأوزبك وفارس واتخذ من تبريز [3] عاصمة لدولته.

وما ان تم لإسماعيل الصفوى بسط نفوذه على ايران كلها حتى كشف عن عزمه على إعلاء شأن الشيعة [4] فأعلن أنه سليل الإمام السابع [5] .كما أعلن أن المذهب الشيعى هو دين الدولة ولكى يحقق اهدافه فى تحويل ايران الى المذهب الشيعى رأى أن القوة السياسية يجب أن تساندها قوة عسكرية مخلصة ، تربطها به وشائج عقائدية متينة تجعلها مستعدة للاستماته فى الدفاع عن معتقداتها ، ومن هنا اعتمد على القوى العشائرية الصفوية [6] . وحارب إسماعيل الصفوى أهل السنة ، وكان أهل السنة أكثرية سكان البلاد فى ذلك الوقت وراح يحملهم قسرا على الدخول فى المذهب الشيعى ومن أجل ذلك لم يتردد فى أفناء مدن بأسرها والقضاء على العلماء والأعلام زرافات ووحدانا حين يرفضون الاستجابة لدعوته.

وفى ذلك الوقت الذى ظهر فيه الصفويون كان البرتغاليون يلتفون حول أفريقية ويدخلون المحيط الهندى ، ولما اتصلوا بشيعة إيران لم يجدوا صعوبة فى التعاون معهم من أجل القضاء على الأساطيل العربية ، واحتلال سواحل الخليج ، وتصفية الحكم العربى أينما وجد ، وغزو الجزيرة العربية فى نظير مساعدة البرتغاليين للشاه فى أخماد ثورة مكران. ولما كان العثمانيون يعدون أنفسهم حماة المذهب السنى

---

[1] أردبيل فى أزربيجان .

[2] لتفاصيل ذلك انظر د ربيع جمعة:الشاه اسماعيل الكبير،بيروت، دار النهضة العربية ١٩٨٠

[3] تقع فى الشمال الغربى من ايران بالقرب من الحدود التركية

[4] د. أحمد محمود الساداتى : تاريخ الدولة الاسلامية باسيا وحضارتها ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٩ م ص ١٥٢.

[5] الامام السابع عند الامامية الجعفرية هو موسى الكاظم .

[6] عبد العزيز نوار: الشعوب الأسلامية ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٣ ص ٢٢٠-٢٢١.

فقد وجدوا فى الدعوة الصفوية الشيعية تحدياً أساسياً لهم ، وخطرا على مستقبلهم وخصوصا أن الشاه إسماعيل الصفوى بدأ يمد نفوذه على العراق وعلى مناطق الأوزبك [1] وشرق الاناضول ويرسل المنات لنشر المذهب الشيعى هناك حتى لقى استجابة واسعة فى هذه المناطق .ونتيجة لذلك غير السلطان سليم الأول – الذى تولى العرش بتأييد من الانكشارية باعتباره منقذا للامبراطورية العثمانية من الخطر الشيعى –خطة أسلافه بالتوسع شطر شرق أوربا إلى جنوبى الاناضول لمقاتلة الصفويين ووقف المد الشيعى تجاه بلاده فاعلن سليم الأول الحرب على الصفويين ، وزحف بجيوشه من مدينة أدرنة فى ١٩ من مارس ١٥١٤ م قاصدا مدينة تبريز ، ولكى تنهك قوات الشاه أسماعيل الصفوى قوى العثمانيين بدأت تتقهقر أمامهم فى محاولة لاستدراجهم . واستمر الصفويون فى تقهقرهم حتى دارت المعركة الحاسمة بين سليم الأول والشاه أسماعيل الصفوى فى وادى شالدران (جالديران) فى السادس من رجب ٩٢٠هـ/١٥١٤ م وانهزم الفرس وانتصرت الجيوش العثمانية ، بعد معركة فاصلة وصفها أحد المعاصرين بقوله كان بينهما هناك وقعة مهولة تشيب منها النواصى ، وتذهل العقول عند سماعها من كل دان وقاص ، فصيرت الرؤوس عن الأجساد طائرة ، وطفشت [2] العساكر بالخيول الغائرة ، ووقع القتل بالسيف حتى اجرى الدماء بينهم كالسيل فيا لها من ساعة مهولة ، لا ترضى الله ولا رسوله فوقعت الكسرة على عساكر ابن عثمان اولا وقتل من عسكره ما لا يحصى عددهم ...فلما عاين ابن عثمان ما وقع له من هذه الكسرة قام على عسكره وحضهم على القتال فانكسر الصوفى وولى مهزوما وقتل من عسكره اضعاف ما قتل من عساكر الروم[3] .

وفر الشاه بعد ان اصابته بجروح ووقع كثير من قواده وجنوده فى الاسر وأسرت ايضاً احدى زوجاته وفتحت المدينة ابوابها ودخلها السلطان منصوراً فى ١٤ من رجب ٩٢٠هـ واستولى على خزائن الشاه وارسلها الى القسطنطية وقطع رؤوس من قتل من أمراء اعدائه وأرسلها إلى بلاده فطافوا بها هناك [4] ولكن سليما لم يشأ أن يتابع تقدمه إلى ما وراء تبريز نظرا لامتناع الانكشارية عن التقدم لاشتداد البرد ،وصعوبة المسالك ،وقلة المؤونة اللازمة فقفل راجعا إلى بلاده مكتفيا بكبح جماح الفرس وخشية ثورة الانكشارية عليه .

ونتيجه لمعارك السلطان سليم مع الصفويين يتضح ما يلى :

١- نجاح العثمانيين فى الحد من نشر المذهب الشيعى فى الأناضول والبلاد العربية حيث منعوا زحف المذهب الشيعى على الشرق العربى الآسيوى ومصر،واستأصلوا هذا المذهب من الاناضول .

٢- استثمار أوربا لهذه الخلافات ومحاولتها التسلل إلى الشرق الإسلامى ، ومدها للفرس بالأسلحة الحديثة ليحاربوا بها العثمانيين بغية الحد من زحفهم المتواصل على أوربا [5] .

٣- استيلاء العثمانيين على ديار بكر ، ومد سلطانهم على الأجزاء الشمالية من العراق .

---

[1] كان الأوزبك يحكمون بلاد ما وراء النهر التى تضم التركستان وبخارى وسمرقند

[2] كلمة عامية بمعنى هربت

[3] محمد بن اياس بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٤ ،القاهرة ،الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ص ٤٠٢-٤٠٣

[4] ابن اياس :المصدر السابق ص ٤٠٣

[5] الساداتى :المرجع السابق ص ٢٥٢

ثانياً الأتراك العثمانيون :-

ينتمى العثمانيون الأوائل الى احدى عشائر قبيلة الغز التركية ، والتى تعرف باسم قابى ، وقد هاجرت هذه القبيلة من المشرق إلى الأناضول فى القرن الثالث عشر الميلادى هربا من جنكيز خان ووصلت الى آسيا الصغرى وبعض شواطئ البحر الاسود وأرمينيا حيث التجأت إلى السلاجقة المسلمين فآووهم وأقطعوهم أراضى لمواشيهم .

وكانوا يعتمدون فى حل ما يواجههم من مشكلات على زعيمهم عثمان ولما كانت الحروب الصليبية قد دارت رحاها في ذلك الوقت فقد تطوع عثمان مع بعض رجاله لنصرة بعض سلاطين السلاجقة واظهر شجاعة وحسن دراية فاستدعى ذلك مكافأته وتقديره فعين حاكما على احدى المقاطعات وبعد وفاة السلطان السلجوقى اعلن عثمان استقلاله [1] وبسقوط دولة السلاجقة على يد المغول الايلخانيين تمكنت الامارة من استقطاب عدد من الامارات التركية المسلمة فى الاناضول وهى الامارات الناشئة على انقاض دولة السلاجقة واستأنفت توسعها غربا فاتجهت منذ سنة ١٣٤٥م إلى اوربا الشرقية فاستولت على اجزاء كبيرة منها وتوجت اعمالها العسكرية فى عهد محمد الفاتح بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م ومأأن انتهى القرن الخامس عشر حتى كانت الدولة العثمانية تشمل الاناضول واليونان وشبه جزيرة البلقان وجزائر بحرايجة وجزيرة في جنوب ايطاليا .وفى عهد السلطان سليم الاول ١٥١٢-١٥٢٠م اتجهت الفتوحات نحو الشرق ، بعد تحديات الشاه إسماعيل الصفوى لأهل السنة والجماعة ، فدفع ذلك سليما إلى العمل على مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام .ولم يكن السلطان سليم يرى كبير فرق بين الشاه إسماعيل وجنده ، وبين أى من حكام أوربا فى عدائهم للاسلام ، خصوصا أن الشاه رسم سياسته التوسعيه على اساس التحالف مع البرتغاليين .ولما كان العثمانيون يعدون أنفسهم حماة المذهب السنى فقد اتخذت عملياتهم العسكرية ضد الصفويين شكل التدمير والقسوة البالغة [2] ، وانتهت باتتصارهم فى جالديران ودخول تبريز عاصمة الصفويين.، وزعزعة النفوذ الايرانى فى المنطقة وهز كيان الموالين لهم وبعد خروج الصفويين من حلبة الصراع بدأ السلطان سليم يوجه جهوده لاخضاع المماليك، واعداد العدة لتوحيد الجبهة الاسلامية فتوجه زحفه نحو الغرب الأوربى، واتجهت قواته إلى العالم العربى مشرقه ومغربه وذلك للأسباب التالية .

١-استنجاد أهل السنة فى العراق بالعثمانيين لانقاذهم من بطش الصفويين الفرس خصوصا بعد أن قام الشاه اسماعيل الصفوى بالاستيلاء على بغداد فى عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م ومحاولته تحويل أهل السنة فى العراق إلى المذهب الشيعى عن طريق القوة والبطش واراقة الدماء [3] .

٢-وصول الدولة العثمانية إلى درجة من التشبع فى فتوحاتها الأوربية خاصة وأن لكل دولة مدى محدوداً من التوسع حتى لا تتباعد خطوط مواصلاتها وتنقطع، ودولة مركزها الآستانه من المنطقى ألا تتعدى

---

[1] ميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ، القاهرة ١٩٠٨م ص ١٩

[2] أكرم العلبى : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ٦٠٩-٩٢٢هـ/ ١٥٠٠ -٠ ١٥٢ ، دمشق ، المتحدة للتوزيع ، الطبعة الاولى ١٤٠٢ / ١٩٨٢ م ص ٣٦٨ ..

[3] للتفاصيل انظر. عبد العزيز نوار: مصر والعراق، القاهرة ص٥٦-٥٩

حدودها المجر .

٣- رفض المماليك مساندة العثمانين في حربهم مع الصفويين في عام ١٥١٤هـ وتعرضهم لمرور الامدادت العثمانية في المناطق التابعة لهم ، ورفضهم تقديم الآغذية والمؤن اللازمة للجيش العثماني مما عطل تقدمه فترة من الزمن هذا بالاضافة إلى رغبة العثمانين في بسط نفوذهم على امارة "ألبستان" او ذى القادرية الممتدة على الفرات الاعلى .

٤- ايواء المماليك لبعض الآمراءالعثمانيين المناوئين للسطان سليم والخارجين على سلطة الدولة العثمانية مما أوجد حالة في التوتر في العلاقات بين الطرفين .

٥ - رغبة السلاطين العثمانيين في شغل جهازهم العسكرى الكبير المسمى بالانكشارية في الحروب خارج الدولة حتى يبتعدون عن التفكير في الدسائس والمؤامرات والانقلابات الداخلية .

٦- احباط فكرة الشاه اسماعيل الصفوى في التحالف مع البرتغاليين وتقسيم مصر والشام والحجاز فيما بينهما

٧- رغبة العثمانيين في اخضاع العالم الاسلامى بما يضمه من الاماكن الاسلامية المقدسة حتى يدعم مركز الدولة العثمانية كدولة اسلامية سنية في مواجهة اعدائها الذين كانوا يتمثلون في أوربا المسيحية، ودولة الفرس الشيعية مما يسمح لهم بتزعم العالم الاسلامى منتهزين في ذلك فرصة التهديد الأوربى السافر له خصوصا من جانب أسبانيا والبرتغال، ومن هنا بدأوا في التحرش بالمماليك واستفزازهم بغية الالتحام معهم في معركة حاسمة يكون فيها القول الفصل، فانتهزوا فرصة عودتهم إلى بلادهم بعد انتصارهم على الصفويين في "جالديران" واقتحموا امارة ذى القدرية التى تعترف بالولاء لسلطان المماليك، وقتلوا اميرها "علاء الدولة"، ووضعوا مكانه أحد الولاة العثمانين مما كان له اكبر الأثر في اشعال نار الحرب بين الطرفين، واستمرار تبادل الاتهامات بينها ففي حين اتهم المماليك العثمانيين بتعرضهم لتجار المماليك الذين يأتون بالمماليك الشراكسة إلى سلطنتهم [1] نجد أن العثمانيين يتهمون المماليك بتعرضهم لقوافلهم اثناء محاربتهم للصفويين ونتيجة لذلك زحف السلطان سليم بجيشه المجهز باحدث التجهيزات العسكرية ومنها المدفعية الثقيلة حتى وصل إلى حلب في عام ٩٢٢هـ ١٥١٦م وأصبح على مقربة من المعسكر المملوكى .

ثالثا:المماليك:-

جلب المماليك من مناطق عدة من أبرزها شبه جزيرة القرم وتركستان وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس والبحر الاسود [2] وكان ذلك بطريق الشراء من أسواق النخاسة [3] .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب أول من اشترى المماليك بشكل مكثف واتخذ منهم جندا بأعداد كثيفة، وبعد وفاته أفلت زمام الأمور من الأيوبيين وتمكن المماليك من السيطرة على زمام الموقف والقضاء على توران شاه الوريث الشرعى للحكم .

---

[1] عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦ ص ٦٠-٦١ .

[2] للتفاصيل انظر أبو العباس القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء جـ ٤ ، القاهرة،١٩٢٢ ص ٤٤٧.

[3] كان بالقاهرة أسواق لهذا الرقيق تعقد في خان الخليلى، وكان للسلاطين عمال يختارون لهم ما يناسبهم من الغلمان كما كان الأمراء والوزراء والقضاة يختارون من شاءوا منهم أناثا وذكورا فينجبون بالنجباء منهم إلى المدارس يلقنونهم أصول الدين والعلم ثم يدربونهم على فنون الحرب وقيادة الجند..

وقد حكم المماليك العديد من البلدان الإسلامية وبخاصة مصر والشام والحجاز واليمن وبعض المناطق الفراتية فى العراق واستطاعوا حماية ديار الإسلام من المغول الذين تمكنوا من القضاء على الخلافة العباسية والاستيلاء على بغداد فى عام ٦٥٦هـ /١٢٥٩م كما تمكنوا من الثبات أمام قوى الصليبيين الذين حكموا العديد من بلاد الشام لفترة ثم أخرجوهم منها نهائيا فى عام ٦٩١هـ/١٢٩١م .

ونتيجة لحركة الكشوف الجغرافية وتحويل طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح بدأت أحوال المماليك فى التدهور والضعف بشكل مكن البرتغاليين من هزيمتهم فى موقعة ديو البحرية فى ٩١٥هـ/١٥٠٩م والاستيلاء على بعض المناطق الاستراتيجية فى البحر الأحمر وتهديد الأماكن الإسلامية المقدسة فى الحجاز هذا بالاضافة الى منعهم للتجار المسلمين من التعامل مع تجارة الشرق الاقصى ،وقيامهم بالعديد من الاعمال التخريبية ضد السفن والموانى الاسلامية [١] ثم وصولهم بعد ذلك الى منافذ الخليج العربى وتحكمهم فى مضيق هرمز واستيلائهم على جزيرة سوقطرة التى تتحكم فى مضيق باب المندب والبحر الأحمر من جهة ، وعلى الساحل الشرقى لشبه الجزيرة العربية حتى مسقط من جهة أخرى ثم محاولتهم التعاون مع الاحباش فى توجيه حملة بحرية للاستيلاء على جدة ، والزحف منها لهدم الكعبة المشرفة ومواصلة الزحف على المدينة المنورة لنبش قبر الرسول عليه السلام ثم مواصلة الزحف إلى تبوك وصولا إلى بيت المقدس حيث المسجد الاقصى [٢]

كل هذه العوامل أدت إلى اهتزاز الثقة فى المماليك كحماة للاسلام ،وتطلع آل عثمان إلى الساحة العربية مندفعين بالعاطفة الدينية وبالواجب الدينى الملقى على عاتقهم فاتجهوا نحو البلاد العربية لحسم الموقف مع البرتغاليين الذين أساءوا إلى الاسلام ، وأسروا حجاج بيت الله الحرام عند مدخل البحر الاحمر وذبحوهم [٣] ، وكذلك من أجل حماية المشرق الاسلامى وشواطئه فى مخاطرهم .

وفى خلال ذلك كانت العلاقات المملوكية مع العثمانيين جيدة لدرجة أن قام العثمانيون بمساعدة المماليك لتقوية اسطولهم البحرى حتى يتمكن من مواجهة البرتغاليين ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا فبعد انتصار السلطان سليم العثمانى على الصفويين بدأ فى التحرش بالمماليك حيث دمر إمارة " البستان" [٤] الواقعة تحت حمايتهم ، وحشد قواته فى مواجهتهم وخاصة انهم قاموا بأيواء الثائرين عليه ومنهم الأمير جم ابن السلطان محمد الثانى الذى كان يرى نفسه أحق من السلطان سليم بالحكم ، ورفضوا تسليم اللاجئين إليهم

وبعد أن أرسل السلطان سليم الأول فى يونيو ١٥١٦ م برسالة مهينة إلى السلطان قنصوة الغورى يطالبه فيها بأن يلاقيه عند مرج دابق ، أخذ الغورى فى الاستعداد لملاقاة العثمانيين ، وطلب من مماليكه الاستعداد للمعركة ومن قوله فى هذا الشأن " والذى منكم متزوج يطلق زوجته حتى لايبقى وراءكم التفاته إذا سافرتم فى التجريدة " [٥] كما طلب من الخليفة العباسى فى مصر محمد المتوكل الاستعداد للسفر معه ، واصطحب معه أيضا مشايخ المذاهب الأربعة الشافعية والحنابلة والمالكية والحنفية .

---

[١] للتفاصيل انظر ابن اياس : بدائع الزهور حـ٤ حوادث شهرى المحرم وذى الحجة عام ٩٢٠هـ .

[٢] للتفاصيل انظر عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها .

[٣] حيان : وثائق تاريخية وجغرافية تاريخية – ترجمة يوسف كمال ، القاهرة ١٩٢٧ ص ٢١٤ .

[٤] لهذه الإمارة أسماء أخرى منها ذو القادر .

[٥] للتفاصيل أنظر ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور حـ٣ ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق ، الطبعة الأولى ١٣١٢ هـ ص٥

ومضى الغورى على رأس جيشه إلى بلاد الشام وناب عنه طومان باى فى مصر ووصل الغورى إلى حلب فى يوليو ١٥١٦م وكان جيشه يتالف من ثلاثة أقسام هى :

١- الجلبان أو الأجلاب :-

وهم مماليك السلطان الحاكم ، وكانوا أكثر حظوة من غيرهم لدى السلطان لاعتماده عليهم خاصة وأنه استاذهم الذى اشتراهم وحررهم .

٢- القرانصة :-

وهم مماليك السلطان السابقين .

٣- السيفية :-

وهم مماليك الأمراء السابقين ، وقد قاتل الجيش المملوكى بقيادة قنصوة الغورى قتال الابطال فى بداية الامر .انهزم خلاله العثمانيون لدرجة أن هم السلطان سليم بالهرب ، خاصة بعد أن قتل من عساكره ما يزيد عن عشرةآلاف [١] ولكن سرعان ما لعبت الخيانة دورها فقد اطلق خاير بك "نائب حلب" الذى استطاع السلطان العثمانى رشوته وضمه الى صفوفه بعض الشائعات بين صفوف المماليك بهدف احداث الفرقة بينهم ومنها ان السلطان المملوكى ابعد مماليكه الجلبان عن قلب المعركة وترك الجنود القرانصة وقوداً للحرب ومنها ان السلطان الغورى قتل فى اثناء المعركة فتبلبلت الافكار وشاع الذعر فى صفوف المماليك لدرجة ان اضطربت احوالهم وأخذ بعضهم فى الفرار ولم ينجح الغورى فى السيطرة على الموقف وافلت منه الزمام ونتيجة لعدم تحمله لصدمة الهزيمة انقلب من فوق جواده على الارض فاقد الوعى [٢] وداسته سنابك خيول العثمانيين المندفعة وراء المماليك المتقهقرين ، فلما رأى ذلك امراؤه القريبون منه خشوا ان يقع فى اسر العثمانيين فيفصلوا راسه عن جسده ، ويطوفوا بها فى بلادهم فقرروا قتله بانفسهم فقطعوا راسه ورموها فى جب وأخذوا جثته وألقوها فى نهر قريب [٣]

وانتهت معركة مرج دابق التى لم تستمر سوى يوم واحد ، وذهب ضحيتها الالوف من الطرفين بتغيير الاوضاع فى العالم الاسلامى فاستولى العثمانيون على بلاد الشام وبدأوا فى التأهب للسيطرة على مصر

ويرجع اسباب هذا الانتصار الى عدة عوامل من اهمها :

١- خضوع القوات العثمانية لقيادة حازمة موحدة على حين كانت بعض فرق الجيش المملوكى غير مخلصة للسلطان الغورى ولا تثق فى اوامره

٢- استخدام القوات العثمانية للمدفعية الحديثة ، والاسلحة النارية غير المتوفرة لدى المماليك ، على حين اعتمد المماليك فى الحرب على شجاعة فرسانهم وعلى هجومهم الخاطف وعلى التمسك بفنون القتال القديمة المرتبطة بحدة سيوفهم القواطع.

٣- قوة التنظيم الادارى لدى العثمانيين مما وفر للمقاتلين جُلّ متطلبات المعركة بطريقة منتظمة.

٤- التعاون بين وحدات الجيش العثمانى من المشاة والانكشارية والفرسان النظاميين.

---

[١] ابن اياس المصدر السابق جـ٣ ص ٤٧

[٢] ابن زنبل : تاريخ السلطان سليم مع قانصوه الغورى ، جزءان ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨

[٣] ابن زنبل : ص ٥٠

٥- خيانة خاير بك نائب السلطان الغورى على حلب حيث أشاع هو وجان بردى الغزالى نائب حماة الفوضى بين صفوف المماليك نتيجة لنشرهما الشائعات بأن السلطان الغورى يفضلّ مماليكه من الجلبان على المماليك القرانصة حيث وفرّ لهم وسائل الحماية ، ولم يدفع بهم إلى المقدمة فى الحرب على حين رمى فى لظى المعركة بالقرانصة وعرضهم لنيران العثمانيين دون مماليكه الخصوصيين مما أدى إلى أضطراب النظام فى الجيش المملوكى وتقاعس الجنود القرانصة عن القتال .

وقد دخل السلطان سليم حلب دون مقاومة ، فأمّن أهلها على أرواحهم وأولادهم وأموالهم [١] كما دخل دمشق وغيرها من المدن السورية التى بدأت تسقط تباعا فى أيدى العثمانيين .

وخلال ذلك قابل الخليفة المتوكل السلطان سليم وسار فى ركابه . وفى مساجد حلب ذكر اسم السلطان سليم فى خطبة الجمعة كما لقبه أحد خطباء المساجد بلقب خادم الحرمين الشريفين مما أسعد السلطان العثمانى ، وجعله يغدق على الخطيب بالخلع والهدايا المتعددة [٢] .

وإلى جانب ذلك تقدم الكثير من أمراء الشام وأعيانها إلى السلطان سليم يقدمون له فروض الطاعة والولاء فاعطاهم الامان ، وثبتهم على أملاكهم .

وفى محاولة من السلطان سليم لاكتساب تأييد أبناء الشام له قام بتوزيع الهبات على العلماء والأهالى.

وفى الجانب الأخر عادت فلول الجيش المملوكى إلى مصر وهم فى أسوأ حال فكانوا ممزقى الثياب نحيلى الاجسام وبعد أن وصل نبأ الهزيمة إلى القاهرة اجتمع المماليك لاختيار سلطان جديد يتولى أمور البلاد واستقرت الأمور فى النهاية على اختيار طومان باى ، وهو الذى كان قد عهد اليه الغورى بحكم مصر فى أثناء غيابه ببلاد الشام .

ولما تردد طومان باى فى بداية الأمر خشية الغدر به من قواد المماليك قام الأمراء بالقسم على المصحف بألا يغدروا به أو يثيروا فتنا ضده [٣] .

وعلى الرغم من أهمية فتح مصر بالنسبة للعثمانيين فان السلطان سليم لم يكن مهتما بفتحها خاصة وأنه كان يعلم أن ذلك سيعرضه لمخاطر اجتياز سيناء ، وامتداد خطوط مواصلاته لمسافات طويلة لذلك عرض وهو فى دمشق على " طومان باى " ان يعلن خضوعه للسلطنة العثمانية واعترافه بسيادتها، وأن يذكر أسمه فى الخطبة ، ويسك العملة باسمه فى نظير ايقاف الحرب بينهما وعدم غزوه لمصر ، وأن يكون نائبه فى حكم مصر حتى مدينة غزة [٤] .

ونتيجة لرفض السلطان " طومان باى " لهذه التبعية وتصميمه على الدفاع عن ملكه ، وتهوين الأمير المملوكى " خاير بك " للسلطان سليم أمر فتح مصر ، والظروف السيئة التى وصلت إليها أحوال المماليك بعد هزيمتهم قام العثمانيون بنقل ميدان الحرب إلى مصر ..

وبعد أن علم " طومان باى " بزحف السلطان سليم على مصر ووصوله إلى غزة واختراقه صحراء سيناء نادى المماليك بالخروج من غير تأخر ، فخرج العسكر مسرعين ، ووقعت معارك عنيفة

---

[١] القرمانى : أخبار الأول وأثار الدول ، القاهرة ، مخطوط بدارالكتب المصرية تحت رقم ٢٦٢٦ ص ٩٩.

[٢] قطب الدين النهروالى : الاعلام باعلام بيت الله الحرام ص ١٨٧ - ١٨٨.

[٣] ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ص ٦٩ .

[٤] ابن زنبل الرمال : آخره المماليك فى مصر - واقعة السلطان الغورى مع سليم - تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ص ١٣٦.

انكسر فيها المماليك ، ثم أخذ " طومان باى " فى اعادة تجميع صفوفه عند الريدانية (بين المطرية والجبل الأحمر) ولما أقبلت العساكر العثمانيين التقى معها المماليك فى معركة مهولة انتهت بهزيمتهم وانكسارهم [1] .

ودخل العثمانيون القاهرة بالسيف عنوة فى يوم الجمعة الموافق ١٥ يناير ١٥١٧ م وخُطب للسلطان سليم على منابرها . ومع ذلك لم يستسلم طومان باى بل أخذ يعد العدة للمقاومة ، واشتبك مع العثمانيين فى عدة معارك ، ولما لم يتمكن من الظفر بهم قام مع بعض جنوده بعملية انتحارية بهدف انهاء الموقف لصالحه وذلك باقتحام مقر قيادة القوات العثمانية ، وقتل السلطان سليم وعلى الرغم من نجاحه فى اقتحام مقر السلطان العثمانى ، وقتل من فيه فانه لم يتمكن من أسر السلطان سليم ، بل أسر وزيره اعتقادا منه انه السلطان حيث لم يكن معروفا لديه من قبل [2] . ولم ييأس طومان باى ، وحاول استرداد القاهرة ، وظفر ببعض الانتصارات المؤقتة وفى النهاية اضطر إلى الالتجاء لأحد الأعراب فى مديرية البحيرة واسمه " حسن مرعى" ليؤويه مؤقتا وأخذ عليه العهد ألا يخونه ، ولكن ذلك الأعرابى لم يف بعهده فسرعان ما أخبر العثمانيين بمكان " طومان باى " فقبضوا عليه واحضروه حيث مقر السلطان سليم الذى استبقاه لعدة أيام ، وكاد يأمر بنفيه إلى الحجاز ، لولا ايحاء " خاير بك " للسلطان بضرورة قتل " طومان باى " حيث قال له " كيف تترك هذا الرجل وتسافر " فغير السلطان رأيه وأمر بشنق " طومان باى" وتعليق جثته على باب زويلة [3] .

ويذكر ابن اياس أن " طومان باى " طلب من الناس فى أثناء ذهابه إلى المشنقة أن يقرأوا عليه الفاتحة ثلاث مرات ثم بسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه ثم قال للمشاعلى اعمل شغلك فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف [4] .

وباعدام طومان باى انتهت دولة المماليك فى مصر كما انتهت من قبل على الشام بمقتل الغورى " وخضعت البلاد حوالى أربعة قرون تحت السيادة العثمانية فأخذ السلطان سليم فى ترتيب الأمور فى مصر فأبقى على الموجود من نظمها وتقاليدها وأعلن فى الناس الأمان . وعندما هم بمغادرة مصر فى سبتمبر ١٥١٧ هـ حمل معه عددا من الرهائن كما نقل عددا من الصناع وارباب الحرف إلى الآستانه، ثم عين خاير بك واليا على مصر.

الفتح العثمانى للحجاز

لما كانت بلاد الحجاز تقر بالولاء للمماليك فى مصر الذين سقطوا فى "مرج دابق " "والريدانية" أمام القوات العثمانية فقد وجد "الشريف بركات بن يحى" أمير مكة المكرمة ان من الخير له ان ينقل تبعيته إلى العثمانيين، وان يعلن الدخول فى طاعتهم بطريقة سلمية وذلك لأسباب عديدة نذكر منها رغبته فى مساندة الدولة العثمانية له فى مواجهة الخطر البرتغالى على بلاده، ثم تقوية مركزه أمام منافسيه على الشرافة.. ونتيجة لذلك بعث الشريف "بركات" بابنه "أبى نمى" إلى القاهرة لمقابلة السلطان سليم ليقدم

---

[1] ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ص ٩٧ .

[2] محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية – تحقيق احسان حقى – بيروت ، دار النفائس ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ص ١٩٢.

[3] ابن اياس : مصدر سابق جـ٣ ص ١١٤ – ١١٦ .

[4] نفسه ص ١١٥.

له التهانى وفروض الطاعة، ويسلمه مفاتيح الحرمين الشريفين وبعض الآثار النبوية، وابلاغه بخضوع وطاعه والده للدولة العثمانية، وقبوله دخول الحجاز تحت سيادتهم

وقد استقبل السلطان سليم " أبو نمى " وأقر والده فى شرافته كما جعله متصرفا فى أمور مكة وأضاف إليه أمور الحسبة أيضا [1] وحرضه على التخلص من "حسين الكردى" حاكم جدة من قبل المماليك.

وعلى الرغم من أن السلطان سليم قد أبقى على نظام الشرافة فقد أمر بانشاء صنجقيه عثمانية فى جدة ، أطلق عليها العثمانيون اسم "ولاية الحبش" وعينوا عليها حاكما عثمانيا [2] .

ونتيجة لذلك دخلت بلاد الحجاز سلما تحت الراية العثمانية مما نتج عنه ظهور العثمانيين فى البحر الاحمر، ومحاولاتهم صد الخطر البرتغالى عنه، ومنع تهديده للأماكن الاسلامية المقدسة، ومن هنا بداوا فى العمل على استكمال سيطرتهم بالاستيلاء على اليمن.

ومن النتائج التى ترتبت على وصول العثمانيين إلى الحجاز أيضا هو اقتران اسم السلطان العثمانى بلقب "حامى حمى الحرمين الشريفين" و "خادم الحرمين الشريفين" وقد اعتز العثمانيون بهذا اللقب، واعتبروه متمما لأركان الخلافة، كما اهتم العثمانيون بمنطقة الحجاز، واقاموا فيها العديد من الاصلاحات.

وعلى اى حال فقد أصبحت الدولة العثمانية فى خلال عام واحد (١٥١٦-١٥١٧) تمتلك ثلاث مناطق اسلاميه عربية هامة وهى الشام ومصر والحجاز وأصبح البحر الاحمر مدعما بالطابع الاسلامى العثمانى خاصة وأن العثمانيين منعوا دخول المراكب المسيحية فيه بحجة أنه يطل على الاماكن المقدسة للمسلمين فى الحجاز وقد تمسكت الدولة العثمانية بذلك حتى أواخر القرن الثامن عشر يضاف إلى ذلك أن الاماكن الاسلامية المقدسة، وعلى رأسها المسجد الحرام ، والمسجد النبوى ، والمسجد الاقصى أصبحت فى حوزة الدولة العثمانية مما أضفى عليها زعامة دينية فى العالم الاسلامى .

ومما يحمد للعثمانيين دورهم الكبير والمتميز فى صد الحملات البرتغالية الموجهة إلى جدة مما حال دون تحول الحجاز إلى ميدان قتال بين المسلمين والبرتغاليين .

العثمانيون واليمن :-

أحوال اليمن قبيل الفتح العثمانى :-

كانت أحوال اليمن قبيل الفتح العثمانى شديدة الاضطراب حيث كان يعانى من تصارع القوى المحلية عليه فالامامة الزيدية رغم أنها لم تتمكن من توحيد البلاد فان نفوذها كان قويا خاصة بين قبائل المرتفعات وآل طاهرالذين حاولوا توحيد البلاد اليمنية ، وتمكنوا من الاستيلاء على صنعاء [3] . هذا فى الوقت الذى بدت فيه مخاطر البرتغاليين واضحة خاصة بعد دورانهم حول رأس الرجاء الصالح ، وتهديدهم للشواطئ الجنوبية للجزيرة العربية ، وقيامهم بقصف بعض المناطق اليمنية واغراق السفن العربية واحراقها .

---

[1] ابن اياس: مصدر سابق جـ٣ ص١٢٤-١٢٦

[2] عمر عبد العزيز: دراسات فى تاريخ العرب الحديث جـ١، بيروت دار النهضة العربية ص ٩٤-٩٥

[3] للتفاصيل أنظر . على البهكلى : العقد المفصل بالعجائب والغرائب فى دولة الشريف بن غالب - تحقيق العقيلى ص ٢٠ ومابعدها.

ونظراً لخطورة الموقف كان هناك ضرورة لتناسى الخلافات والعمل على الوقوف صفا واحدا لدرء هذا الخطر ، هذا إلى جانب الاستعانة ببعض القوى الاسلامية المجاورة لليمن ، ونتيجة لذلك كاتب " عامر بن عبد الوهاب " السلطان الغورى طالبا منه المساعدة لدرء الخطر البرتغالى ، ولما كان السلطان الغورى يرى ضرورة تصفية الخلافات الداخلية فى اليمن أولاً حتى يتيسر له القيام بعمل عسكرى ضد البرتغاليين فقد أرسل حملة عسكرية بقيادة حسين الكردى استطاعت القضاء على دولة بنى طاهر والاستيلاء على زبيد وتعز وغيرها كما نجحت فى دخول صنعاء ولم يبق أمامها سوى الامامة الزيدية.

وخلال ذلك الوقت وصلت الانباء بمصرع السلطان الغورى وسقوط الشام ثم مصر والحجاز فى يد العثمانيين .

الفتح العثمانى لليمن:

أرسل العثمانيون قوة عسكرية بقيادة "حسين الرومى" لاستكشاف الأمور فى اليمن، والوقوف على طريقة للسيطرة على القوى المحلية المناوئه لهم هناك، ولكن هذه الحملة وجدت مقاومة عنيفة اضطرتها إلى التراجع . ونظرا لتعاظم قوة البرتغاليين وتزايد خطرهم على بلاد المسلمين أرسلت الدولة العثمانية حملة كبيرة بقيادة "سليمان الخادم" فى عام ١٥٣٨م وذلك لتصفية الموقف فى اليمن لصالحها [1] ولكنها وجدت مقاومة شديدة هناك خصوصا من الزيديين بزعامة "المطهر بن الامام شريف" الذى سلح قواته بالأسلحة النارية مما جعل مهمة العثمانيين شاقة وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن سليمان باشا من الاستيلاء على عدن بعد أن غدر بحاكمها "عامر بن داود الطاهرى" وشنقه، كما استولى على زبيد من المماليك، وبعدها عاد إلى القاهرة، وعين مكانه "مصطفى باشا" الذى كلف بالاستيلاء على تعز، وبالرغم من المقاومة العنيفة من الزيديين له، فقد تمكن من الوصول اليها، ولكن ذلك لم يستمر طويلا حيث استمرت مقاومة الزيديين حتى تمكنوا من اخراج العثمانيين من "تعز"، وانزال العديد من الهزائهم القاسية بهم، والاستيلاء على صنعاء وعدن منهم مما دفع العثمانيين إلى تعزيز قواتهم فى اليمن.

الحملة العثمانية الثانية على اليمن :-

ارسلت الدولة العثمانية حملة جديدة بقيادة "سنان باشا" ٩٧٧هـ/١٥٦٩م تمكن العثمانيون خلالها من استرداد تعز وغيرها، ثم توصلوا إلى اتفاق مع الزيدية يقضى بان يحكم امام الزيدية باسم السلطان العثمانى، ولكن ظهور الامام المؤيد "محمد بن القاسم" على الساحة قد قلب الأمور رأسا على عقب حيث استطاع أن يستعيد كل ما استولى عليه العثمانيون كما ضرب الحصار على زبيد ، وطرد منها القوات العثمانية، وتابع محاصرته للعثمانيين حتى اخرجهم عن آخرهم من اليمن، وكان ذلك فى عام ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م وبذلك يعد اليمن اول قطر عربى يستطيع الانفصال عن الدولة العثمانية والسؤال المطروح هو لماذا تخلت الدولة العثمانية عن اليمن ولم تحاول اعادة الكرة للسيطرة عليه بعد ذلك رغم أن الذى تسلم امورها فى هذه الفترة السلطان " مراد الرابع " الذى تحققت للدولة العثمانية الكثير من الانتصارات فى عهده ؟

الواقع ان اليمن أصبح فى مأمن من الخطر البرتغالى الذى كانت تخشاه الدولة العثمانية يضاف إلى ذلك ان الفتح العثمانى لليمن، كان قد كلف الدولة العثمانية الكثير، وورطها فيما لا طائل من ورائه.

---

[1] البهكلى: المصدر السابق ص٢٠

الفتح العثمانى للعراق :

بعد انتصار العثمانيين على الصفويين فى موقعة " جالديران " ١٥١٤م أعلن العراق الولاء للسلطان سليم الاول [١] كما اعلن ذو الفقار حاكم بغداد الولاء للعثمانيين بدلا من الفرس ولكن ذلك الأمر لم يستمر طويلا خاصة وان الصراع بين الصفويين والعثمانيين ظل قائما من أجل تملك الأمور فى العراق ونتيجة لانشغال العثمانيين عن شئون العراق، وعدم احكام سيطرتهم عليه تمكن الصفويون من العودة اليه والسيطرة على أموره طمعا فى خيراته، ولوجود العتبات المقدسة والنجف وكربلاء فيه. واستمر الوضع كذلك حتى خلف السلطان سليمان القانونى والده السلطان سليم الاول فى الحكم وبدأ يتطلع الى العراق ، منتهزا فرصة استصراخ اهل السنة هناك له ، ومطالبتهم له بأن يحول بينهم وبين الصفويين الذين اعملوا السيف فيهم ، وأراقوا دماء علماء المذهب السنى فقام بفتح العراق فى عام ١٥٣٤ م بسهولة ودخلت قواته بغداد دون قتال . وقضى السلطان : سليمان القانونى : فيها فصل الشتاء ثم غادرها فى الربيع بعد أن عين سليمان باشا المجرى واليا على بغداد ، وحتى تستتب الامور للعثمانيين فى العراق أمر السلطان العثمانى بارسال فرق كاملة من الجنود الانكشارية الى مدن العراق الكبرى ، كما وزع العديد من الاقطاعات العسكرية فى مدينة الموصل بصفة خاصة ، وكان يعزز هذه القوات كلما توترت علاقات بلاده مع فارس [٢] يضاف الى ذلك أنه أمر بتقسيم العراق الى أربع ولايات هى الموصل وبغداد وشهر زور وكردستان والبصرة وذلك لخشيته من تجمع العراق كله فى يد وال واحد يستطيع أن يسيطر على العراق فى حالة تمرده ، هذا الى جانب أن العراق كان يضم جنسيات مختلفة [٣] والى جانب ذلك فقد امتد النفوذ العثمانى إلى اقليم القطيف فى عام ١٥٥٠ ، ووصل إلى بعض مشيخات وامارات الخليج العربى مثل "مسقط:" التى تم انتزاعها من البرتغاليين كما استولى العثمانيون على البحرين وعدن حتى يتمكنوا من فرض سيطرتهم على البحر الأحمر وتطهيره من العدوان البرتغالى وتحويله إلى بحيرة اسلامية، ونجحوا فى ذلك إلى حد كبير ، كما سارت سفنهم فى الخليج العربى الذى رفرفت رايات الاسلام عليه .

ولقد حاول الصفويون استرداد العراق أكثر من مرة ، ونجحوا فى الاستيلاء على بغداد فى عام ١٦٠٢م ولكن ذلك لم يستمر طويلاً حيث وقف لهم العثمانيون بالمرصاد واستطاع السلطان "مراد الأول "اعادة العراق إلى حوزة العثمانيين مرة ثانية واستمرت الأحوال على ذلك المنوال حتى قامت الحرب العالمية الأولى وتمكن الانجليز من السيطرة على العراق .

ثانياً المغرب العربى :

هذا عن احداث المشرق العربى اما عن احوال الغرب العربى فقد كان يعيش ايضاً فى مشاكل جمة الهدف منها الإطاحة بالحكم الإسلامى فى هذه المناطق فبعد ان سقطت الأندلس الإسلامية فى ايدى الاسبان فى عام ٨٩٧هـ /١٤٩١م نتيجة للتنازع بين الحكام المسلمين من بنى الأحمر هناك من ناحية والتكاتف الصليبى ضد الإسلام فى الأندلس من ناحية أخرى والذى كان اخره اتحاد عرشى أرغوان وقشتالة بالزواج الكاثوليكى بين فردناند الخامس ملك أرغوان وإيزابيلا أميرة قشتالة ورغبتهما فى تحويل بلاد الشمال

---

[١] عبد العزيز نوار: مصر والعراق ص٥٦و ما بعدها

[٢] عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ، القاهرة . دار الكتاب العربى ص ٩

[٣] عبد العزيز نوار : داود باشا والى بغداد ، القاهرة دار الكتاب العربى ص ١٦

الأفريقى المسلمة إلى النصرانية [1] كان لابد من وقوف ابناء المغرب العربى المحدقين بهذه الأخطار الصليبية صفاً واحداً لمواجهة الموقف ، ومع ذلك كانت الفرقة والانقسام تطحن أبناء هذه المناطق . فبعد أن سقطت دولة الموحدين التى كانت تحكم بلاد المغرب كلها من برقة إلى المحيط الأطلنطى ، قامت دويلات صغيرة على أنقاض هذه الدولة التى عصفت بها الانقسامات الداخلية والرغبة فى التوسع على حساب جيرانها لدرجة تمكنت معها البرتغال وأسبانيا من الوصول إلى شواطئ أفريقيا الشمالية واتخاذ بعض النقاط العسكرية لها هناك فوصل البرتغاليون إلى " سبتة " وطنجة " " وأغادير " على المحيط الأطلسى ، كما أستولى الأسبان على " مليلة " المطلة على البحر المتوسط ، واحتلوا " المرسى الكبير " و " وهران " و " طرابلس " و " جربة " وأصبح الشمال الأفريقى من ليبيا إلى مراكش مُعرّضاً لسيطرة عسكرية مباشرة خصوصاً من الأسبان ، كما ظلّ محوراً لصراع بحرى لمدة طويلة مع البلدان الأوربية المواجهة له كأسبانيا والبندقية ومالطة [2] .

ومن الأسماء التى ظهرت خلال مواجهة هذه الأخطار الأوربية اسرة بربروس التى كان من أقطابها الأخوان عروج ، وخير الدين اللذان كانا فى خدمة الدولة الحفصية فى تونس ، ثم انضمّا إلى أهل الجزائر خصوصاً بعد أن لجأوا إلى " عروج " لحمايتهم من الأسبان وقد خلف خير الدين أخوه عروج - الذى تمكن الأسبان من قتله فى عام ١٥١٨م . ولما وجد أنه لاقبل له بمواجهة الأسبان خصوصاً بعد أن ازداد الخطر المسيحى على بلاده ، رأى ضرورة مساندة قوة اسلامية كبرى له حتى يتمكن من مواجهة الاخطار الاستعمارية ونتيجة لذلك ارسل وفدا إلى الاستانة فى عام ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م . لإقناع السلطان العثمانى بمساندة أهل المغرب فى الدفاع عن بلادهم وتخليصهم من الخطر الصليبى المتسلط عليهم .

وقد ارسل السلطان سليم الأول ألفى جندى مع قوة مدفعية للجزائر مما مكن خير الدين على الصمود والسيطرة على مناطق الجزائر الساحلية، ثم الاستيلاء على قلعة بينون(penon) التى أنشأها الأسبان أمام مدينة الجزائر مما أثلج قلب الدولة العثمانية، ودفع السلطان سليمان القانونى إلى استدعاء "خير الدين بربروسا" وتنصيبه قائداً عاماً على الأساطيل العثمانية [3] كما عهد إليه بولاية الجزائر وكلفه باعداد الحملات العسكرية لتخليص بلاده من الأسبان والبرتغاليين كما أوكل اليه مهمة فتح تونس وطرد مولاى الحسن حليف الأسبان منها وقد تمكن خير الدين من الاستيلاء على تونس بسهولة فى عام١٥٣٤ م [4]

وعلى أثر موت خير الدين فى عام ١٥٤٦م. عين للولاية ابنه حسن باشا وفى عهده وعهد من تبعه من الولاة ازداد ارتباط أوجاق الجزائر بالدولة العثمانية ارتباطاً قوياً، ولما قام جيش شارل الخامس صاحب تاج أسبانيا بمحاولة احتلال الجزائر، قاومه أتراك الجزائر وأجبروه على مغادرتها .

وعندما برزت أطماع الأسبان فى تونس وأخذ النزاع بينهم وبين العثمانيين شكلاً حربياً أرسلت الدولة العثمانية حملة بقيادة "سنان باشا" تمكن خلالها من السيطرة على تونس تماماً فى عام١٥٧٤م ،

---

[1] صلاح العقاد : المغرب العربى ص ١٦ .

[2] جلال يحيى : المغرب الكبير ص ١٥ ومابعدها .

[3] جلال يحى: المرجع السابق ص١٧ -٢٦

[4] أرجمندكوران: السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى للجزائر -ترجمة عبد الجليل التميمى-تونس ١٩٧٤ص١١-١٢.

كما نجح فى الاستيلاء على طرابلس عام ١٥٥١م. وهكذا دخلت طرابلس تحت السيادة العثمانية وأصبحت قاعدة هامة من قواعد النضال البحرى فى شمال أفريقيا [١] .

ومما سبق يتضح ان ملابسات خضوع المغرب العربى للسيطرة العثمانية تختلف تماماً عما حدث فى بلاد الشرق العربى، اذا لم يدخل العثمانيون هذه البلاد بالقوة المسلحة بل هى التى دخلت فى طاعتهم سلماً بعد أن طلبت مساعدتهم ضد الهجمات ا سبانية والبرتغالية ، ومن هنا فإن نظرة أهل المغرب إلى العثمانيين تختلف عن نظرة أهل الشرق لهم فقد رأوا فى العثمانيين المنقذ والمخلص لهم من أعداء الإسلام المتربصين بهم [٢] .

وعلى كل حال فإن الفتوحات العثمانية لم تتوقف على ذلك بل انتهز السلطان سليمان القانونى فرصة اندلاع حرب أهلية فى الحبشة فأراد الاستيلاء عليها بقصد حماية البحر الاحمر من هجمات البرتغاليين وفى طريقه إلى ذلك استولى على ميناءى سواكن ومصوع فى عام ١٥٥٧ م وهكذا امتد النفوذ العثمانى فى العالم العربى من الجزائر غرباً إلى الخليج العربى شرقاً، ومن حلب إلى خليج عدن وبحر العرب جنوباً ولم يخرج من هذا النفوذ سوى مراكش التى تمكنت من المحافظة على استقلالها رغم التهديدات الأسبانية والبرتغالية والعثمانية لها، وأصبحت بذلك القطر العربى الوحيد الذى لم يدخل فى حوزة العثمانيين مع باقى البلاد العربية [٣]

ومما سبق يتضح أن الدولة العثمانية تصدرت مركز المدافع عن الاسلام فى فترة من أحلك الفترات كما أن سلاطينها الأوائل أحسوا بعمق الرابطه الإسلامية ، فقاموا بتوحيد العالم الإسلامى وأصبحوا القوة العظمى فيه ، والدرع الواقى الذى يحميه من الأطماع الصليبية ، فكان لهم الفضل فى حماية الأماكن المقدسةوالمدافعين عن طرق الحج ، وعلى مزاولة المسلمين لشعائرهم الدينية يضاف إلى ذلك أن العثمانيين نجحوا فى ايقاف الاعتداءات البرتغالية على التجار العرب والامارات العربية الساحلية إلى حد جعل البرتغاليين يعجزون عن مد مواقعهم إلى داخل البحر الاحمر ، كما أنهم حطموا المحاولات التى بذلها البرتغاليون لإقامة تحالف بينهم وبين الحبشة لمواجهة القوى الإسلامية فى البحر الأحمر وشرق افريقيا . وهكذا جعلت الدولة العثمانية البحرالأحمر بحراً إسلامياً أقتصرت فيه الملاحة على السفن الاسلامية وظل مغلقاً فى وجه السفن المسيحية ، التى حُرّم عليها الأبحار فى مياهه بحجة قربه من أهم المناطق الاسلامية المقدسة فى العالم ألا وهى بلاد الحجاز كل ذلك جعل أبناء العالم العربى خلال هذه الفتره ينظرون إلى الفتوحات العثمانية لبلادهم على أنها جهاد فى سبيل الله وحماية للاسلام وتوسيعا لرقعته [٤] .

واذا كان تاريخ الدولة العثمانية قد تكاثرت حوله المآخذ أحياناً فيجب أن نذكر أن لكل دولة مزاياها التى تذكر لها ، كما أن لها مآخذ تسجل عليها ولكن يكفى الدولة العثمانية فخراً أنها حافظت على العالم الاسلامى من الغزوات الصليبية حوالى اربعة قرون وكان لها اليد الطولى فى احراز الانتصارات العديدة باسم الإسلام وتحت رايته.

---

[١] حلال يحى : المرجع السابق ص ٢٦

[٢] الأهرام فى ١٩٧٣/٢/١٦ مقال للدكتورة بنت الشاطئ تحت عنوان "أصداء من ملتقى الفكر الإسلامى بالجزائر".

[٣] حلال يحى : المرجع السابق ص٢٧ .

[٤] ساطع الحصرى :المرجع السابق صـ١٦-٢١